

للأستاذ / عطية فتحي الويشي

غالبا ماتُعنى ذاكرة التاريخ بحفظ المواقف والأحداث ذات الأثر المحوري في تغيير وجه الحياة وحركة الوجود.. وإن لأيام الله الخالدة في دهرنا نفحات، لاتستقيم الحياة ولاتحلو بغير التعرض لها وملابسة ذكرياتها.. فلعل القيمة التاريخية لهذه الأيام: تكمن فيما تجود به من عبر ودلالات وحين تمتزج بحركة الواقع يحدث التناغم المرتجى بين الواقع والتاريخ، فتبدو الحياة وكأنها نسيج متآلف من القيم والمناهج والتصورات والأفكار والرؤى التي هيمنت على السلوك الإنساني فأثمرت خير أمة أخرجت للناس.!

إنه يوم الانتصار للضعفاء

ويوم عاشوراء من الأيام التي حظيت باهتمام الإسلام وتكريمه بل واحترامه، لا لذاته، ولكن بما ارتبط به من ذكريات أراد الله أن يكتب لها الخلود، فتبقى معانيها ودلالاتها العظيمة: حية في الأولين والآخرين وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. فلقد روى مسلم في فضل عاشوراء من طريق عبيد الله بن أبي زيد: أن ابن عباس سئل عن صيام يوم عاشوراء ، فقال: «ماعلمت أن رسول الله ﷺ صام يوما، يطلب فضله على الأيام إلا هذا اليوم»(١). ولأجل الإبقاء على معاني هذا اليوم حية في نفوس المسلمين على الدوام: رصد النبي ﷺ لمن أقامها بالصيام خيرا كثيرا: عن أبي قتادة: أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام عاشوراء فقال «إني لأحتسب عند الله أن يكفر السنة التي قبله»(٢) فهو رمز عال لذكريات التحرر البشري من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان إلى عبودية الله الواحد القهار... وهو يوم انتصر الله فيه للمستضعفين في الأرض من أهله.. وجازى الطغاة ومن نابذه بالتمرد والعصيان: الخزي وسوء العاقبة!!

وجذور الذكرى كما تبدو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود صيًاما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله: ماهذا اليوم الذي



تصومونه؟ فقالوا هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصام موسى شكرا، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم. فصامه رسول الله وأمر بصيامه»(٣). وفي الموطأ: «أن عمر ابن الخطاب أرسل إلى الحارث بن هشام: أن غدا يوم عاشوراء فصم وأمر أهلك أن يصوموا»(٤)

ولقد أوقف القرآن الكريم لقيم الحرية ومناسبات الانعتاق البشري من أغلال الظلم وقهر الطواغيت: حشدا من الآيات الغفيرة... بل وقنن سبل تأصيل تلك القيم في النفس البشرية وتكريس مبادئها في دنيا الوجود، فقد أرخ لذكرى عاشوراء تأريخا حفياً إن دل: فإنما يدل على عنايته الفائقة بتلك القيم والمبادئ المجيدة.. قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور* وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ إبراهيم/٦،٥. أراد الله أن يسطر بذاكرة الأجيال الإنسانية على تعاقبها في دنيا الوجود أيام الله في الذين خلوا من قبلهم وما فيها من فرج وشدة... تمكين واستضعاف .. أفراح وأتراح... وحتى يتسنى للتذكرة سبل السداد ربط الله تعالى الواقع بالتاريخ في سياق مترادف الأحوال والملابسات، فيرجع جل وعلا بذاكرة القوم من بني إسرائيل إلى ماضيهم القريب والبعيد في ضوء الواقع المعاش مبرزا «نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون يسامونه سوماً فلا يفتر عنهم ولا ينقطع. ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث، منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم. فإنجاء الله لهم من هذه الحالة نعمة تذكر. وتذكر لتشكر»(٥).

شكر النعمة

وأي نعمة أجزل وأجمل من أن يخوض الإنسان غمار حياته حراً بأفكاره ومعتقداته، عزيزاً بمبادئ دينه وقيمه الفطرية، دون أن يتوارد على نفسه طائف من نغص أو تضييق، أو تملك عليها هواجس الخوف والترقب...؟! ولعل اعتراف الإنسانية المؤمنة بنعمة ربها وإقرارها بمنته ليس سبيله تمتمات اللسان بشفويات لا شأن لأولي الإخلاص بها، وإنما شكر هذه النعمة هو: «الإستقامة على الهدى في مقابل النجاة»(٦).

ولعل أمر النبي ﷺ بصيام عاشوراء: فضلاً عن كونه دليلاً على عناية الإسلام بالحرية كقيمة أخلاقية عظيمة الشأن ينبغي أن تتوفر لها سبل الحياة والانتشار مادامت السماوات والأرض، فإنه تدليل وتوكيد كذلك على الترابط العضوي بين هياكل الرسالات السماوية ووحدة قيمها ومبادئها جميعاً من جهة أخرى. بيد أن مايستلفتنا في هذا السياق: شروع النبي ﷺ في مخالفة اليهود والتميز عنهم بشأن صيام ذلك اليوم المبارك، فعن مسلم عن أبي غطفان بن طريف قال: «سمعت عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يقول حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع»(٧). وفي رواية البيهقي موقوفاً على ابن عباس: صوموا اليوم التاسع والعاشر وخالفوا اليهود».

تعظيمنا للذكرى يختلف عما يفعله اليهود فيها

فهو نهي عن التشبه بهم خشية الوقوع في محظور من دين الله على أي حال... فلم يكن النبي ﷺ يعتمد من شرعتهم وغيرهم إلا ما كان يوحى من الله إليه.. ولعل تعظيم اليهود ذلك اليوم إنما جاء



من غير وجه احتفالهم بنجاة موسى وقومه من فرعون وحسب: كيوم رأس سنتهم مثلاً، لذا شرعت مخالفتهم..!

والحقيقة أن ثمة اتجاهات محدثة جنحت بالذكرى بعيداً عن مساراتها ومؤثراتها التاريخية... لتلقي مزيدا من الظلال على بعض رموزنا التاريخية العظيمة، وتفرض حصاراً ضارباً حولها لحساب قناعات مذهبية.. فتمتنع من ثَمَّ العبرة وتحتجب المعاني والإيحاءات، وتزداد الحكم والأسرار غموضاً والتباساً...؟!!

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن احتفال المسلمين بمناسبات من قبيل يوم عاشوراء ويوم عرفة وما في نحوهما بالصيام: فيه لطيفة تتمثل حين يخلو البطن ويصفو الذهن، وتزكو النفس فتتهيأ للتأمل في آفاق الذكرى، والتفكر في مغزى وطبيعة المواقف التاريخية التي تمثلها الأولون من أصحاب الرسالات السماوية، فحينئذ تتبدد الغيمات من آفاق الأحياء وتتضح مسالكهم وترشد مسيرتهم فيمضون إلى الله وهو راض عنهم.!

لابد من تأمين مسيرتنا الحضارية

وهكذا ينبغي للذكرى أن تعكس دلالاتها الحقيقية ومقاصدها الهادفة وتتجسد معانيها في حركة المجتمع المسلم بكل هيئاته ومؤسساته... فما كانت المناسبات في شريعتنا لحما يؤكل، ولا جديدا من الثياب يلبس، ولا أفراحا تفتقد مبرراتها وحكمتها ومغزاها... وليس عقلاً أن تمر ذكرى عاشوراء دون أن يكون لنا من أوضاعنا السياسية والاجتماعية والعقدية: وقفات وعي وإدراك وتنمية وإصلاح في ضوء موروثاتنا التاريخية

عاشوراء وقفات وعي وإدراك

الأصيلة: ولا يفوتنا في هذا السياق أن نناشد حكومات وسائر مؤسسات العالم الإسلامي إلى وجوب تأمين مسيرتنا التاريخية، لضمان التواصل الحضاري والتلاقح الفكري بين الأجيال المتعاقبة من المسلمين حتى يتسنى لنا مواجهة نظم الهيمنة والاستكبار التي تتآمر على هويتنا وتراثنا فتذيبه في منظومة العولمة فيفقد تميزه وأصالته..

حين تتصدى حكومات العالم الإسلامي ومؤسساته الحيوية لهذه التألهات الفرعونية العالمية التي تعبث في الأرض فساداً بغير حق، حتى لقد بات مسطوراً في أبجدية نظامها العالمي الجديد خطة استراتيجية لتعويق مسيرة الدعوة الإسلامية، فتنصب على امتدادها الفخاخ والأشواك... وتمكر بالليل والنهار بثا للوشايات وتسميما للعلاقات بين الشعوب المسلمة وحكوماتها تحت ستار محاربة الأصولية الإسلامية.. حين ينتصر العالم الإسلامي لقيم السماء في مواجهة هذا الطوفان الماحق.. حينئذ تتوافر بين أيدينا أسباب النجاة والفلاح، ويحسن الاحتفال بيوم عاشوراء ويليق بنا إحيائه... ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

المراجع والهوامش

١- رواه مسلم في كتاب الصوم- حديث (١١٣٢).

٢- رواه ابن ماجه في كتاب الصوم- حديث ١٧٣٨.

٣- رواه الشيخان- واللفظ لمسلم- كتاب الصيام- حديث (١١٣٠)

٤- رواه مالك- كتاب الصيام- حديث (٣٥).

٥- سيد قطب- في ظلال القرآن- دار الشروق- بيروت - ١٤١٥- ط٢٣- ٢٠٨٨/٤

٦- المرجع السابق ٤ / ٢٠٨٨

٧- رواه مسلم - كتاب الصيام - حديث (١١٣٤).